

## مُتَلَمَّة

من تناقضات حياتنا العقلية المحيرة ما نلمسه من قوة وعمق اعتزاز الشعب المصرى بتاريخه ، إلى حد الوصول إلى مرحلة يمكن تسميتها «عبادة الماضى» وفى نفس الوقت يتسع نطاق الإساءة إلى التاريخ المصرى ، على أيدي مصريين ، ويلقى ذلك استجابة لا بأس بها لدى عامة الناس وخاصتهم .

ليس الأمر أن الشخصية المصرية - بطبيعتها - قابلة للجمع بين المتناقضات فى كيان واحد ، ولكنه من تأثير حملات منظمة ، أو شبه منظمة ، تمزق فيها جوقة متكاملة من الكتاب والمتحدثين أحياناً فيها تنويعات شديدة البراعة لغرس الكراهية فى نفوس المصريين لكل مرحلة من مراحل تاريخهم ، دون استثناء .. وهذه ظاهرة قديمة منذ العصر الفرعونى ، حيث نرى فى آثاره ما كان يبذله أصحاب المصالح فى كل مرحلة ونظام ، للإساءة إلى المرحلة والنظام السابقين وتشويه ما كان معتبراً من مفاخره وأمجاده ، والسعى - بفنون عديدة وبراعة نادرة - لتحويل صورة أبطال كل عصر فى الذهن العام إلى مجموعة من الخونة والمرتشين والمتآمرين ، فلا يبقى فى الوجود إلا العصر القائم وحده وكل ما قبله خراب ، ولا يعلو ذكر أحد إلا قادة الحاضر . وتتحول ذكرى من كانوا أبطالاً فى الماضى إلى شواهد أشبه بالشاهد الذى نطلق عليه «إبليس» ، عند العقبة الكبرى ، والذى يمثل رمى الحجارة عليه ركناً من أركان فريضة الحج .. كذلك أصبح ركناً من أركان الإخلاص لكل نظام حالى أن تلعن كل نظام سابق ، وركناً من أركان الولاء للزعيم الحى أن تشوه الزعيم

الراحل ، ولا أظن لأن الأمر يمكن تفسيره باستشراء النفاق فقط ، بل لابد أن نتعمق أكثر فى تفسير هذه الظاهرة .



ربما يكون ضمن عوامل نشوء هذه الظاهرة ما كان يحرص عليه ملوك الفراعنة من أن يكون كل منهم هو الوحيد الذى سجل للتاريخ المصرى انتصارات أقرب إلى المعجزات ، وكان رمسيس الثانى أكبر مثال لذلك ، إذ لم يكن يتعب نفسه فى كتابة واختراع أمجاد وانتصارات لنفسه ، بل كان يمحو أسماء الملوك ويضع اسمه مكان اسم كل من حقق انتصاراً أو إنجازاً قبله حتى بدا - وفق ما هو مسجل على جدران المعابد وفى النقوش ، صانع الانتصارات فى كل العصور .. !

وقد يضاف إلى ذلك أن الطبيعة البشرية تهيئ لكل حاكم مجموعتين جاهزتين دائماً تحت الطلب، الأولى مجموعة الباحثين عن سلطة أو منصب أو ثروة ويتعاملون مع كل عصر وكل حاكم بمنطق: (أنت تدفع ونحن نزور) أو (بقدر ما تعطينا نعطيك) وعلى أيدي أمثال هؤلاء أصبح تزوير التاريخ علماً وفناً، بل تحول مع الزمن إلى صناعة رائجة من أقدم الصناعات المصرية، وصار له - مع الزمن - خبراء، وأساتذة ، وجهابذة .

أما المجموعة الثانية الجاهزة لكل عصر وكل حاكم لتقديم خدمات التزييف والتزوير فى ثوب متقن، فهم الذين أضيروا من العهد السابق، وعاشوا فيه صامتين على مضمض، أو مؤيدين خضوعاً للأمر الواقع ومن وراء القلب.. كانت لهم عزة وعزوة ثم انكشف عنهم الغطاء، فلما زال العهد تصوروا أن الأمر يمكن أن يعود لصالحهم إذا طبقوا قاعدة «عدو عدوى هو صديقى» فانطلقوا للثأر لأنفسهم من العهد الذى أضيروا فيه، وللتقدم

بشهادة تثبت حسن السير والسلوك تعطيهم فرصة الاندماج، والاستفادة، واستعادة المكانة فى العهد الجديد .



الأمثلة كثيرة على ما فعله ويفعله ممثلو الجماعتين . وأقرب مثال عايشناه ونعرف نجومه واحداً واحداً من بقايا مرحلة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . ظلوا طوال حكم عبد الناصر صامتين، بعضهم أرسل بريقيات تأييد للزعيم الملهم منقذ البلاد من فساد الحكم الملكى .. وبعضهم انخرط فى الحياة السياسية والاجتماعية داعين للثورة وقائدها ، وما كاد عبد الناصر يتوارى حتى خلعوا الأقنعة ، وتكلم الصامتون منهم . وكشف المناورون حقيقة مشاعرهم ، وبدءوا فى الهجوم على ثورة يوليو هجوماً ضارياً استخدموا فيه الأسلحة المحرمة أخلاقياً ، ودينياً ، وسياسياً ، ليجردوا هذه الثورة من كل إنجاز ..

يقال لهم إن الثورة حققت جلاء الاحتلال البريطانى عن مصر- فيقولون إن ذلك كان خطأ.. لأن الاحتلال كان سيرحل من تلقاء نفسه فلم تفعل الثورة إلا أن بددت ثروة وطاقه الأمة فى معركة سياسية لا لزوم لها .. !

ويقال لهم إن الثورة أعطت السودان حق تقرير المصير فأكدت أنها تقود دولة متحضرة تحترم إرادة الشعوب، ولا تفرض الوحدة قسراً، مع أنها ناضلت من أجل الوحدة، لكن الوحدة عندها لا تفرض فرضاً على شعب، ولا بد أن تأتى نتيجة حتمية لطبيعة الجغرافيا ، ووحدة التاريخ، وضرورات الاستراتيجية ، بل وضرورات الوجود ذاته ، وهذا منطوق يتفق مع العقل والمنطق .. فيقولون إن الثورة ارتكبت جريمة لا تغتفر حين (تنازلت) و (ضيعت) السودان !

ويقال لهم إن الثورة سعت سعياً جاداً إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وأفسحت للفقراء الطريق ليتعلموا مجاناً، فظهر فيهم نبوغ جعل منهم علماء

وأطباء ومهندسين وقادة سياسيين ، فيقولون إن هذا كان الخطأ الأكبر لأنها بددت الأموال لتشجيع (السفلة) و(الغوغاء) على التناول على (الأسياذ) وقلبت الهرم الاجتماعى فجعلت ابن البواب عالماً وطبيباً ومهندساً ، وكان يجب أن يظل الطريق الوحيد أمام ابن البواب أن يكون بواباً ، وأمام ابن الفلاح أن يكون فلاحاً ، وهكذا ..

ويقال لهم إن الثورة أقامت السد العالى الذى حوى مصر من الجفاف والعطش ثمانى سنوات متصلة - وما زال يحميها - ولولا ما أضافه إلى رصيدها من المياه ما كان من الممكن استصلاح أراض جديدة ، فيقولون إن السد العالى كارثة لأنه منع الطمى وأدى إلى اختفاء (السردين) .. !

ويقال لهم إن الثورة أقامت عشرات المصانع وبدأت تحقيق حلم (مصر الصناعية) وأقامت أول مفاعل نووى فى المنطقة ، وأنشأت مراكز للبحث العلمى أعدت جيلا من العلماء يعرفهم العالم ، فيقولون إن ذلك كان خطأ لا يغتفر .. !

ويقال لهم إن الثورة لها فضل إحياء الفكرة القومية وقضية الوحدة العربية ، وأن الأيام تثبت أن العرب إذا لم يتوحدوا يمكن أن يتحولوا إلى شظايا ، ويمكن أن تتداعى عليهم الأمم (كما يتداعى الأكلة على قصعتها) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فيقولون إن (مصر الصغرى) هى الأقوى ، بدلا من أن تبدد الثورة ثروة مصر على أشقائها العرب !

كل شىء خطأ !

حرب على ثورة يوليو بأسلحة مشتركة.. فرق من الخارج وفرق من الداخل، مع أن مرحلة (الشرعية الثورية) قد انتهت، وغادر قادة هذه المرحلة مقاعدهم وابتعدوا عن التأثير فى الأحداث، ولم يتبقى منهم إلا الذكرى، وتصفية الحسابات معهم، ومع الثورة كلها، أمر مفهوم،

أما الإساءة إلى تاريخ شعبه بأكمله لإرضاء شهوة الانتقام فهذا ما نخشى عواقبه.

ولم ينتج أنور السادات من هذه الحرب الشاملة ، فهناك من كرسوا جهدهم لإظهار عهده على أنه ليس إلا سلسلة أخطاء متصلة ، وكأنه لم يتحقق شيء يمكن أن يذكر بالخير لعهد ، مع أن حرب أكتوبر وحدها ، يمكن أن تغفر الذنوب جميعاً !

حرب أكتوبر - فى التاريخ الحديث - نقطة تحول بالغة الأهمية ليس على المستوى العسكرى فقط، مع أن ما تحقق فى ميدان القتال فيه الكثير من الإبداع المصرى الذى سجله التاريخ، وتشهد على ذلك دراسات مراكز البحوث الإستراتيجية الكبرى، ومع ذلك لم تسلم هى الأخرى من حرب التشويه والإساءة، مرة بإنكار الانتصار المصرى كلية وهذه درجة من (الوقاحة التاريخية) لاستحق الرد، وإما بتقديمها بأقل كثيرا من حجمها الحقيقى، وكأن هناك فئة تتوارى وراء مبررات وادعاءات واهية، هدفها الحقيقى سلب الشعب المصرى حقه فى الاعتزاز بالنصر الذى حققه فى هذه الحرب، وقدم ثمنا له أرواح شهداء لهم فى الوجدان المصرى مكان كبير.

ما كل هذه الحروب على العالم الأساسية للتاريخ المصرى الحديث .. أمى حرب على أشخاص القادة ..؟ أم هى حرب على كل ما تمثله ٢٣ يوليو وكل ما - ومن - جاء بعدها ..؟ أم هى حرب على الشعب المصرى، لكى يفقد الثقة بالنفس ، ويمضى فى الحياة مسلوب الإحساس بالكرامة ومجرداً من الاعتزاز القومى ؟

يعزز الاحتمال الأخير أن الحرب لم تقتصر على التاريخ السياسى . ولكنها امتدت إلى التاريخ الاجتماعى والحضارى والثقافى للشعب

المصرى ، ولأن اليقظة فى هذه الميادين سابقة على ٢٣ يوليو فإن الحرب شملت زعماء الإصلاح منذ بدايته ، فلم يسلم من حملات التشويه الإمام محمد عبده ، ولا الشيخان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ، ولا قاسم أمين .. ولا أمثالهم .. كما لم يسلم الزعماء أحمد عرابى ، وسعد زغلول ، ومصطفى الفحاس وأمثالهم ..

\*\*\*

أليس هذا أمر يلفت النظر ، ويستحق اليقظة ؟

أليس غريبا أن نجد من يدعوننا إلى التنصل من جزء من ماضينا ، ويدس فينا الإحساس بالخجل من الانتساب إلى مراحل هى فى المقياس الصحيح موضع اعتزاز وفخر .

وهل هناك أمة يمكن أن تعيش بلا تاريخ ؟ أو أن ينمو شباب بلا قدوة ومثل عليا من رجال الماضى والحاضر .. ؟ وانظروا إلى العالم لتروا كم يمجدون رجالهم ..

انظروا إلى حجم التمجيد الذى تمتلئ به الكتب المدرسية والأدبية والأعمال الفنية فى أمريكا عن قادة من أمثال جورج واشنطن ، أو ابراهام لنكولن ، أو ويسلون ، أو روزفلت وغيرهم كثير .. وانظروا كيف يدرس الفرنسيون باحترام شديد أعمال وسيرة حياة رجال الثورة الفرنسية مع فظاعة ما ارتكبهت هذه الثورة ، ثم انظروا كيف يدرس البريطانيون زعماءهم حتى الذين فشلوا منهم مثل كرومويل الزعيم الذى مات مشفوقا باعتباره متمرداً وخارجاً على سلطة الملك ، وانهزم فى النهاية ، لكنهم يقدرون أن ثورته -الفاشلة - هذه كانت نبيلة فى مقصدها من أجل الديمقراطية والحد من سلطة الملك المطلقة ، وإن كانت قد فشلت إلا أنها فتحت الطريق .. وبدأت صفحة مشرفة للديمقراطية وحكم الشعب فى التاريخ البريطانى .

طبعاً هناك من يحلل أعمال كل هؤلاء الزعماء ويوجه إليهم النقد ، ويكشف العيوب ، ويذكر السلبيات ، ولكن ذلك يحدث فى إطار تقدير للدور والمكانة ، وليس فى إطار إهدار الكرامة الشخصية للزعماء كما يحدث من بعض الأقلام عندنا ، وليس بالكذب على التاريخ بادعاء أن كل زعيم لم يكن إلا خائناً ، أو متآمراً ، أو مفترطاً فى حق الوطن ، وهى اتهامات كبرى لا ينبغى أن تكال جزافاً وبالبساطة التى تتم بها ، بغير أدلة ، ولا وثائق ، بمجرد إطلاق العنان للأقلام باستخدام كل ما فى قواميس الشتائم والاتهامات بالباطل دون أدنى شعور بوخز الضمير .

ما أخشاه أن تكون نتيجة ذلك كله أن يجد الشباب المصرى نفسه فى موقف نفسى صعب ، موقف (اللا يقين) ، وفقدان الثقة ، وما يستتبعه ذلك من القلق الذى يدفع إلى الجنون ، أو الجريمة ، أو الانسحاب .. واقرأوا قصة نجيب محفوظ (الطريق) لتروا كيف يشعر الإنسان بالضياع حين لا يجد له أبا ينتمى إليه ، والأب هنا رمز يشير إلى (الأصل) و(الجذر) المعتد فى الزمن ، وإلى الماضى الذى يحتاج الإنسان احتياجاً نفسياً لأن ينتسب إليه .. إن نجيب محفوظ يصور ببراءة معجزة كيف قضى هذا الإنسان حياته كلها بحثاً عن أبيه ، عن أصله ، عن جذوره ، عن المصدر الذى يستمد منه القيمة ، ويعطى لحياته معنى ، ويملؤه بالكرامة .. وحين لم يستطع العثور عليه ، بعد رحلة معذبة ومضنية ، انتهى به الأمر إلى التمزق ، ثم الضياع ، ثم امتلأت نفسه بالعدوان ، وانتهى به الأمر إلى تدمير الذات ، وتدمير الآخرين .

هذه الرواية العظيمة تصور حقيقة من أعمق حقائق الحياة الإنسانية . هى احتياج الإنسان إلى اليقين ، والثقة فى المصدر الذى ينتسب إليه .. هذه الطبيعة هى التى نلمسها فى مدى اعتزاز كل إنسان بأمه وأبيه ، ولا يمكن أن تكون شخصيته سوية ما لم يكن كذلك ، فإذا وجد حوله من يكررون

وبالحاح أدلة مصطنعة ، وادعاءات باطلة ، تشكك فى سلوك الأم لتدفعه إلى عدم احترامها ، أو تصور له أباه هذا الذى يجله بأنه لم يكن إلا آفاقاً مزوراً لا تجوز عليه إلا اللعنة .. فكيف يعيش مثل هذا الرجل مع نفسه أولاً ، ومع الناس ثانياً ، وفى داخله كل هذا التمزق ، والخزى ، والانفصال عن منابع والجذور ؟ من أين تأتيه الكرامة ، ومن أين تأتيه الثقة ليخوض معارك كبرى أو يناضل من أجل معان نبيلة .. ؟

ما أخشاه أن ذلك تحقق بشكل ما ، وأعتقد أن هناك أسباباً عديدة للقلق الاجتماعى ، والتوتر السياسى الذى يظهر فى عمليات وجماعات الإرهاب هذه الأيام ، بعض هذه الأسباب سياسى ، وبعضها اقتصادى ، وبعضها اجتماعى ، وبعضها ثقافى ، ولكن بالإضافة إلى هذه الأسباب كلها ، هناك سبب آخر ، عميق جداً ، وغائر فى النفوس ، ويعمل بقوة غير مرئية فى اللاوعى الفردى والجماعى ، نتيجة هذه العملية الهائلة لتشويه التاريخ المصرى ورجاله التى تجرى بهمة وقوة فى الساحة السياسية والثقافية ، وكان من نتيجتها تشكيك الشباب فى جدوى وقيمة كل ما تحقق من أعمال ، وفى كل فكر وشخص .. وها نحن نرى أمامنا علامات اختلال الشخصية ، واهتزاز الثقة ، فى شباب لم يعايش شيئاً من الأحداث التى يشوهونها ، وليس لديه القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو فاسد من الأحكام التى تطلق ببساطة ، وقد تحول بعض الكتاب إلى قضاة ، ووكلاء نيابة ، وجلادين ، دون أن تكون لديهم أدوات البحث العلمى الصحيح ، أو النزاهة الواجبة ، وكان من نتيجة ذلك ظهور ثلاثة تيارات بين الشباب مدمرة :

التيار الأول: يبدأ برفض كل شىء ، ويلجأ إلى حيلة نفسية دفاعية هى (النكوص) أى الرجوع إلى الماضى ، والحياة فيه كأنه هو الحاضر الحى ، ما دام الحاضر فاسداً كما يصوره أصحاب الأقلام المسمومة ، فإن

الشباب ينتقل من الرفض إلى التمرد على الحاضر والماضى القريب، بحثاً عن بديل فى الماضى البعيد، فى (يوتوبيا).. أما الحاضر فلا يجد فيه ما يستحق البقاء وبالتالى فالقتل والتدمير هى وسيلة الخلاص، وهكذا تندلع شرارة الإرهاب .

**والتيار الثانى :** هو السلبية ، وعدم الانتعاء ، والاعتراب السياسى والاجتماعى والثقافى ، والإبتعاد عن الحياة العامة ، وعدم الانشغال بأمور الوطن ، يحدث فيه ما يحدث فلا يجد لدى هؤلاء اهتماما . بعدما زرعوا فى نفسه أن كل من عملوا من أجل الوطن كانوا (نصابين) .. !

**أما التيار الثالث :** فهو ما سراه من لجوء قطاعات من الشباب إلى البحث عن القدوة ، والمثل الأعلى ، والنموذج ، من خارج المجتمع المصرى بكل عصوره ، ما دام الجميع مزيفون ، وما دام الشك قد وصل إلى مرحلة الإنكار لكل (حقيقة تاريخية) .. وهؤلاء هم الذين نراهم يعرفون أبطال الغناء والرقص والسينما والسياسة فى أوروبا وأمريكا ويقلدونهم ، ولا يعرفون نظائرهم فى مصر ، ولا يريدون أن يعرفوهم ..

هذا (الكفن) بالماضى والحاضر لمصلحة من ؟

قد يقول قائل : أتريد أن يتحول التاريخ إلى تعجيد لكل عصر وكل زعيم على حساب (الحقيقة التاريخية) ؟ وأسارع إلى الإجابة بأن هذا ليس مقصدى ، ولا أتحدث هنا عن حق المؤرخين فى أن يتناولوا العصور والشخصيات التاريخية بالنقد ، بحرية عقلية وعلمية لا تقيدتها إلا قيود الموضوعية ، والأمانة العلمية ، والوثائق ، والمنهج العلمى .. الخ .. لا أجادل فى ذلك ، ولكنى أتحدث عن شىء آخر، أتحدث عن الذين يتناولون الأحداث والشخصيات التاريخية ويتوافر لديهم ما يسميه رجال القانون، (القصد الجنائى) أى نية ارتكاب جريمة اغتيال التاريخ والاعتداء على الحقيقة التاريخية .

هؤلاء أمامنا .. نعرفهم .. ونقرأ لهم .. وقد جعلوا أقلامهم معاول هدم تضرب في الأساس الذى يقوم عليه البناء ، بناء العقل والوجدان ، والعقل ، والضمير ، أو أصبحوا مناجل تقطع جذور الشجرة جذرا بعد الآخر ، يريدون لها أن تسقط وتتهاوى ، وسقوط شعب ، أو سقوط وطن ، جريمة ليس بعدها جريمة ، وأرجو أن يكون مفهوما ما أقصد إليه ، وهو أنتى أحترم كل جهد مخلص ونزيه يسمى إلى (الفهم التاريخى) ولا أستطيع أن أحترم جهوداً لا هم لها إلا هدم تاريخنا وأبطالنا وبيعهم (أنقاضاً) لمن يدفع الثمن ، وأحياناً بغير ثمن .. !

فرق بين (الحقيقة التاريخية) وبين (الخدعة التاريخية) .

لا نطالب المؤرخين والكتاب بمبالغات تجعل كل ما حدث فى الماضى مضيئاً ، وتمجيده بالحق وبالباطل ، ولكن نريد إنصاف ما حققه الشعب المصرى من انتصارات دون إغفال الانكساريات ، والهزائم والأخطاء ، نريد التوازن فى ذكر الإيجابيات والسلبيات ، فليس هناك عصر كان ظلماً تاماً ، ولا زعيماً كان مخطئاً بنسبة مائة فى المائة .

فإن الإنصاف واجب أخلاقى وقومى ، وضرورة لإعادة (التسام الشخصية المصرية) التى تمزقت أو على وشك التمزق . فإن كل عبث فى حلقة من حلقات الماضى لابد أن تفسد الحاضر والمستقبل ، وقد رأينا فى الزلزال الذى ضرب مصر فى أكتوبر ١٩٩٢ أن كل بناء لم يكن قائماً على أساس سليم تصدع وانهار ، ولم يصمد فى لحظة الخطر ، وكثرت ضحاياه ، ولم يبق الزلزال إلا البناء الثابت ، الراسخ ، المستقر على أساس متين .

ونحن نذكر جيداً ما يقوله العلماء من أن الإنسان حيوان له تاريخ .. فكيف يكون هذا الإنسان إذا جردناه من التاريخ ؟

ثم إن علماء النفس يقولون إنه ليس هناك مجرم مائة فى المائة مهما ارتكب من جنايات ، فالمجرم مهما كانت شخصيته مليئة بالشر ، لابد

أن يكون فيه جانب طيب يكسبه الخير ، كما أن القضاة المشهورين بالعدل يقولون إن ميزان العدل له كفتان واحدة للحسنات والثانية للسيئات ، والله سبحانه وتعالى يحاسب خلقه بما فعلوه من خير وشر ، فما بالناس بالزعماء والقادة . كيف نقبل مواقف الإدانة الكاملة والطلقة لكل أعمالهم وتصرفاتهم دون استثناء ؟ أليس ذلك ظلم لا يرضاه الله والضمير .. ويسىء إلى الوطن وأبنائه ؟

هذه هي الدوافع التي حفزتني لكتابة هذه المقالات ونشرت في (الأهرام) في أوقات متفرقة خلال السنوات الماضية ، دفاعا عن جذور الشخصية المصرية - العربية - الإسلامية .. ولست أطمع في أن يتفق القارئ الكريم معي في كل ما أقول ، ولكني - للحق - أطمع في أن أدفعه إلى التفكير في الخطر الذي أنبه إليه . ولم أجد داعيا إلى الإشارة إلى تاريخ نشر كل مقال لأني رأيت أن ذلك لن يفيد القارئ في شيء ، كما لم ألتزم بالترتيب الزمني لنشر المقالات ، وفضلت ترتيبها بحسب سياق الموضوعات ، وقسمتها إلى محاور رئيسية وفقا لطبيعة القضايا التي تطرحها . وإن بدا التكرار في بعض الأفكار فهو من شدة الحرص على أن تكون هذه الأفكار واضحة وأن تصل إلى الأذهان وتتفاعل معها .

ولست في حاجة إلى القول بأنني لست مؤرخًا ، ولا أنزع المؤرخين مكانتهم ، إنما أنا صاحب كلمة ، أردت أن أقولها ، وأمضى ، عسى أن تنفع .. والله وحده هو العليم بالنوايا والمقاصد ، وهو وحده القادر على تحقق القصد ، وحماية مصر من بعض أبنائها ، كما حماها دائما من أعدائها ، وهو سبحانه الموفق والمعين .

عبد البناك